

# المحاضرة العاشرة:

## المنهج العلمي

## المنهج العلمي: method

المنهج العلمي مجموعة من القواعد العلمية والمنطقية بها يتمكن الباحث من تفكير وتركيب وربط المعلومات بموضوعية، وبه تُسج الأفكار وتعرض التصورات المجسدة لها في السلوك والفعل.

يتم استنباط المنهج من المفروء والمسموع دون أن يفصل عنه، فالمنهج هو مجموع الأفكار التي بها يتم تعلم الكيفية التي عليها الأمر أو التي سيؤول الأمر إليها بحثًا وعلمًا ومعرفةً، وبالمنهج يتم التمكن من معرفة الآتي:

.كيف نتعلم؟

.كيف نبحث؟

.كيف نصوغ لما نبحث فروضاً؟

.كيف نصوغ لما نبحث تساؤلات؟

.كيف نسأل وكيف نتسائل؟

.كيف نفكر ونتكبر؟

. كيف نُنظّم أفكارنا موضوعيا وكيف نُنظّمها بالمعلومات نجاه إنجاز الأهداف وبلوغ الغايات؟

. كيف نتابع قضية علمية ونتمكن من تفكيك عناصرها وكشف خفاياها؟

. كيف نركّب ما تم تفكيكه على قواعد قابلة للقياس والتقييم والتفويم؟

. كيف نحلل المتغيرات المحمولة في المعلومات البحثية؟

. كيف نشخص الحالة قيد البحث وفقا للمعلومات التي تم تحليلها؟

. كيف نتمكن من بلوغ النتائج بموضوعية؟

. كيف نستنتج مما نكتب حلولاً ومعالجات؟

. كيف نفسّر النتائج؟

. كيف نكتب التقرير؟

. كيف نعمل؟

. كيف نطوّر ونطوّر؟

ولذا فالمنهج بناء فكري على أسسه تبنى النظريات وتترابط وتُصاغ، وبه يتم إظهار المتغيرات الصريحة والضمنية وتُستكشف العلاقات بين المستقل منها والتابع والمتداخل. ومنه تُستمد الطرق التي تُنتج من أجل تحقيق الأهداف العلمية.

المنهج تتبع فكري واعي به تتوزن المعلومة حتى تأخذ مكانها الذي يليق بها بين المعلومات السابقة لها والمعلومات اللاحقة عليها، وبه يتم استكشاف الاتجاه السالب والاتجاه الموجب، وإظهار الكيفية التي يتم بها الإصلاح بفعالية.

بالمنهج تتضح الرؤية، عمّا هو كائن وعمّا يجب أن يكون، مع تقديم بدائل وفقا لكل أولوية ولكل تداخل وتتابع في الفكرة والكلمة والجملة والنص أو الخطاب.

المنهج لا يستقل عن النص بأي حالة من الأحوال، ولهذا لا يمكن كتابة المنهج فالمنهج لا يُكتب ولكن يكتب عنه. مثلما نفعل الآن نكتب عن المنهج لتُعرّف به الآخرين مثلما عرفنا نحن مما قرأنا من غيرنا.

المنهج لا يمكن أن يستقل بذاته عن غيره نظرية أو نصي أو خطاب، ولذا مع أن  
المنهج لا يكتب، إلا أنه يكتب عنه.

به تُستبين المسارات الفكرية والاتجاهات المحمولة فيها، إنه الكيفية التي بها تتم  
صياغة الموضوع وكيفية تقديمه للقراء والمستمعين أو المتعلمين حتى يتمكنوا من  
استنباطه ومعرفة عن كتب، وهكذا يتم إدراك المنهج استقراء واستنباطا بما يكتب  
به وبما يكتب عنه.

يكون المنهج مبنيا بقوة ترابط أفكاره وبناء قواعده، ويكون ضعيفا بتفكك أفكاره  
وبنيان قواعده، فالمنهج هو الذي يمد المفكرين والباحثين بما يمكنهم من استقراء  
الفكرة وما نكل عليه وما تحمله من متوقع وغير متوقع سواء كان سالبا أو موجبا،  
ويمدهم بكيفية التمسك بما هو موجب والحياد عما هو سالب.

إنه ناظم المعلومة في الفكرة وناظم الفكرة بالمعلومة، وناقلا بها إلى الطريقة  
المرجمة له في كل خطوة من خطواتها في الفعل والسلوك.

المنهج هو الكيفية التي يتم بها توليد الفكرة من الفكرة، وتوليد الحجة من الحجة،  
من أجل رؤية المستقبل والتطلع له قبل وصوله، وهكذا يكون المنهج من أجل  
التطور والتقدم إلى ما هو أفضل وأجود وأنفع.

وبما أن المنهج هو الذي به تفكك المعلومة وتتركب. إذاً هو الذي به يتم الانتقال  
من الكل إلى الجزء ومن بعده يتم الانتقال إلى المتجزئ. وبناء على هذه القاعدة  
كان جدل هيغل، وشك ديكارت من أجل معرفة الحقيقة الكامنة في الكل والحقيقة  
الكامنة في الجزء والحقيقة الكامنة في المتجزئ. وعليه أصبح الباحث يمتدون في  
تفصيلهم المعرفي من كلي إلى جزء إلى متجزئ منه، وحسب خصوصية كل موضوع  
وكذلك منهم من يمتد في بحثه بداية من المتجزئ إلى الجزء ومن ثم إلى الكل.

المناهج كما سبق أن بينّا هي التي تُعلّمنا كيف نفكر، وكيف نتعلم، وكيف نشاهد ونتابع عن وع وكيف نلاحظ ونستقرأ الفعل وردود الفعل، وكيف نربط علاقة بين متغيرين أو أكثر، أو كيف نكشفها للآخرين.

المنهج لم يعد كما يظن البعض قالباً ثابتاً لصهر الأفكار مثل القوالب التي تُصهر فيها المعادن تحت درجات حرارة عالية، بل أصبح المنهج اليوم قواعد معيارية يُمكن أن تقاس به الأقوال والأفعال والسلوكيات، وتحدد على ضوءه الاتجاهات وتُسقرا نتائجها المستقبلية مما يجعل الباحث يرسمون لها الخطط في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع). ولهذا فالمناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع لتبحث فيها، هذه المناهج اجترارية، فهي كمن يُلْكُ العلكة أكثر من مرة، فهي لا تُمكنُ الباحث من توليد الفكرة من الفكرة، والمعلومة من المعلومة، والأحدث من الحديث، والأجد من الجديد، والأففع من النافع. فالمناهج التي تُمكن من كل هذا هي التي تجعل المجتمع بأسره في حالة حركة متجددة، وفي حالة تسابق ومناقسة وتطلع من أجل بلوغ أمانيه وغاياته بكل شفافية مع أخذ الحيطة والحذر من كل انتكاسة.

ولأن البحوث تختلف باختلاف مواضيعها، ودرجة اهتمام الباحثين أو المجتمع بها، لذا فهي تتطلب مناهج علمية مرنة تُمكنُ الباحثين من الوصول إلى أهدافهم العلمية بأقصر الطرق، وأقل التكاليف، وتقدم الموضوع بخطوات يمكن مراجعتها والتأكد منها، ومع ذلك لم تكن المناهج قوالب جاهزة كما يعتقد البعض، بل أنها ذات الأساليب المتنوعة والمتعددة، ولهذا لا داعي إلى فرضها على الآخرين نتيجة خصوصياتهم وخصوصيات مواضيعهم، التي تتطلب أساليب مرنة تراعي خصوصياتهم الثقافية والتعليمية والدينية والعرفية أثناء تجميع المعلومات، وتحليلها، وتشخيص حالتهم، واستخلاص النتائج منها.

المنهج العلمي والموضوعي هو المنهج المفتوح غير المغفل، فالمناهج المغفلة مناهج استهلاكية غير منتجة، تنقيد بالتكرار الذي لا يفتح آفاق التعلم واكتساب الخبرة أمام منهجيته، أما عندما تكون المناهج مفتوحة ومتقنة فإنها تكون مناهج استيعابية، تستوعب تطلعات الباحثين وشطحاتهم، مما يجعل بحوثهم إبداعية، أو التي منها يأتي الجديد.

وكما أن لكل فرد منهج خاص به في حياته العادية يسير عليه سلوكا وأسلوبا في تعامله مع الآخرين، ويتميز به عنهم، كذلك الباحث ينبغي أن يكون له منهجا يصطبغ بخصوصية موضوعه، وعليه ينبغي أن يهتم الباحث بالمنهج الذي يستوعب شطحاته التي منها قد يأتي الإبداع، وكثيرا ما يوصف إبداع المبدع في البداية بأنه شطحات، ويكون في النهاية إضافة علمية جديدة، مما يبطل آراء البعض المنادين بالنقيد ببعض الاتجاهات المنهجية التي لا تنتج إلا التكرار.

المنهج مع أنه ينظم المعلومات تحليلا وتعليلا إلا أنه قد لا يكون فعّالا، أي يمكن أن يتبع الباحث خطوات البحث العلمي بكل دقة، ولكنه قد يكون مغفلا على تعاليم سابقة وغير قادرا على الخروج عنها بما يمكنه من أن يكون مبدعا.

إن إقصاء التفكير العلمي على ما تسمح به اللوائح والقوانين الوضعية، هو تفكير استهلاكي لا يحقق الإبداع، ولا يرتقي بالمبدعين، فالذي يرتقي بالمبدعين هو أن لا يحد من تفكيرهم بسقف يقفون عنده أو دونه، لتكون آفاق الخيال العلمي مفتوحة أمامهم، وهكذا من الواقع، والخيال، والحنس، يصل العقل البدع إلى الجديد المفيد.

المنهج العلمي يرتبط بالموضوع، ولا يحدد عنه، ولذا فالموضوع هو الذي يحدد المنهج المناسب للبحث فيه أو لدراسته، ولهذا لا يمكن أن يكون المنهج سابقا على الموضوع فلولوا الموضوع ما كان المنهج، ولولا المنهج ما سبرت أغوار الموضوع وكشفت أسرارها، ولهذا نقول:

(لكل موضوع منهج خاصا به، فلا داعي لتسويق المناهج الجاهزة التي تُسهم في خلق الثُّبُع ولا تُسهم في خلق المبدعين).

وعليه، فبالمنهج نستطيع أخذ العبر من الماضي، ونستوعب الحاضر الجميل من اجل المستقبل الأكثر أهمية، ولكي لا تكون المناهج تكرارا مملا نتيجة إقتصارها على الجاهز فقط ينبغي أن تكون مناهج تطلعية تفتح آفاق الإبداع أمام الباحث في جميع مجالات العلوم وميادينه الواسعة وذلك باستيعابها تطلعات المجتمع وأمانيه المرجوة.

ولذا فالمنهج هو الفن العلمي في تحديد المواضيع وسبر أغوارها عللا وأسبابا وتحليلا وتشخيصا ونتيجة أو استنتاجا، ويتضح الفن المنهجي لدى الباحث عندما يتمكن من ضبط قدراته العقلية مع الموضوع قيد البحث أو الدراسة، لأن المناهج هي المفاتيح التي تدخل الباحث إلى الموضوع للتعرف على أسراره وخفاياه. وبذلك المنهج هو الذي يُمكن من اكتشاف الأثر سواء أكان اثر ماديا أم فكريا.

إن المناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع للبحث والدراسة مناهج عقيمة وقوالب جاهزة لا طعم ولا رائحة ولا لون لها، فألاهم أن تكون مناهجا تطلعية لكي تكون سباقة لتحقيق أمانى المجتمع وواقية له من التخلف والمرض ومنفعة به إلى التقدم والرقى؛ وأخذة الحيطه والحذر من أن ينتكس إذا ما تم علاجه من مرض قد سبق له وإن وشفى منه.

ولهذا لا ينبغي أن نقف المناهج عند الذي كان، أو عند ما هو كائن، بل يجب أن نتطلع إلى ما هو ممكنا (متوقع وغير متوقع) من اجل المستقبل الأفضل.

المنهج العلمي هو الذي يُمكن من إحداث النقطة التي بها يُصنع المستقبل، ولهذا ينبغي على الباحث أن لا يستهين بالزمان، ولكي لا يستهين بالزمان عليه أن يُعطي قيمة له، وإن لم يفعل ذلك يجد نفسه قد أسهم في ضياعه وضياع مستقبله ومستقبل أبنائه من بعده.

وقد يتساءل البعض:

. إذا كان للزمن قيمة فما هي قيمته؟

. هل لأنه ضرورة بالقوة في ماضيه، وحاضره، ومستقبله؟

. وهل هذه الضرورة نخافها؟

. وهل نخاف الزمن بكامله؟

نعم إنه ضرورة بالقوة، ونعم أننا نخافه، وخاصة المستقبل منه، لأنه غير معروف لنا بعد، مما يحفز الباحث لأن يصوغوا له الفروض والتساؤلات العلمية بموضوعية، ولهذا فهم يبحثون دون توقف عند حدود الماضي منه والحاضر، وذلك لمعرفةهم بأن المستقبل سيأتي بالقوة شئنا أم أبينا.

وبما أننا نعرف انه سيأتي بالقوة، إذن لماذا لا نبحث عنه؟ ولهذا يجب أن نتعلم من أجل المستقبل الذي لم نعرف مضمونه، مع أننا نعرف انه سيأتي إن لم تقم الساعة، ولهذا فنحن الذين أسلمنا وجوهنا لله تعالى، نصلي، ونصوم، ونحج، ونزكي، ونجاهد يوم أن يأتي الجهاد فريضة، وكذلك نعمل، وننزوج، ونؤمن على ممثلكائنا، ونأكل ونشرب، ونتعلم ونبحث ونفكر ونذكر ونعبر، كل ذلك من أجل المستقبل، ولم يكن من أجل الماضي والحاضر.

وقد يتساءل آخر:

. وما الحكمة من كل ذلك؟

لأننا نجهل المستقبل، ولا نتق فيه، كما لا نتق في الماضي والحاضر، لأن الماضي تركنا دون أن بأسف علينا، ولا على الماضيين، وكذلك الحاضر مصرا على ذلك بتأزله عنا تأنية بثانية، ولا يود الاستمرار معنا، ولهذا اتحدت الثقة في الزمنين (الماضي والحاضر)، مما يجعلنا لا نقصر تفكيرنا عيهما إلا لأخذ العبر والقوة الحسنة التي فيهما عند الحضر، ولذا فنحن نفكر في غيرهما، ولا غير لهما إلا المستقبل مع انه شقيقتهم الذي قد يخر بنا إذا لم نحاط من غدره، وعليه: لا

ثقة في الزمن على الإطلاق، الثقة في العمل دون سواه، وعليه ينبغي أن نعمل دون تردد، نبحت، نتعلم، نتعرف، ونصحح أخطائنا أولاً بأول وننتقل إلى حياة المستقبل ونعمل على صناعته دون توقف ولذا فمن يتوقف قليلاً يتأخر كثيراً فلا داعي للتوقف ولو لبرهة.

المناهج العلمية هي المناهج التحسينية التي لا تقف عند قبول الواقع فقط بل تعمل على تحسينه إلى ما ينبغي أن يكون عليه، حتى لا تكون بمرور الزمن جامدة لا مرونة فيها، وتصبح هرمة كالعجوز لا حيوية لها، متكئة على عصا لا غاية من ورائها إلا إثبات عدم قدرة من يتكأ عليها، فهي لم تكن عصا موسى عليه الصلاة والسلام .

للباحث العلمي أساليب فنية تربط المنهج بالطريقة البحثية المتوافقة مع الموضوع قيد البحث والدراسة، مما يجعل للمنهج المتقضي للحقائق عناصر التشويق، التي تحفز القراء على البحث، وتمكنهم من التعرف على أسرار وخفاياه وكنوزه الثمينة، ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد البعض، بل لها من الأساليب المتنوعة التي بها تتنوع البحوث وتترين بموضوعية.

وعليه فإن المنهج هو العملية الشاملة التي بها تحل المعلومات والمعارف والفضايا والعلوم والأفكار، وهذه العملية هي التي تمكن طرق البحث من بلوغ النتائج، فالطريقة التجريبية لن تتجزأ أهدافها إلا بكشف العلاقات الدالة على حلقات الترابط بتحليل الظاهر والكامن أو الصريح والضمني، وهكذا الطريقة التاريخية وطريقة المسح الاجتماعي لن تتما كطريقتين بحثيتين إلا بالمنهج التحليلي.

لذا إن حيد المنهج من قبل الباحث لا بد وأن تكون من ورائه فلسفة، وتتضح فلسفة المنهج بالإجابة على السؤال لماذا يختلف الباحث أو يتفقون في التعرف على الموضوع الواحد، وكيف؟

بشكلٍ عام يختلف الباحث ويتفقون حسب المواضيع، والفلسفات والأهداف المرجوة من كل باحث وكذلك الأغراض والغايات التي من ورائها، والإطار المرجعي لكل منهم أيضاً.

أمّا بشكل خاص فلكلّ شريعة ومنهاجا، أي أن المنهج هو المتغير الرئيس في التباين بين الباحثين فمنهم من تُنظم فرضياته وسؤالاته وأفكاره على قواعد ومنهم من يتخلّى عنها أو عن بعض منها، ولهذا لا يستوون في علاقاتهم البحثية مع الموضوعية التي تُسنها الأخلاق المهنية والحرفية والعلمية.

ولهذا تُستمد فلسفة المنهج من فلسفة الموضوع، فيُصبغ المنهج بفلسفة الموضوع كما تُصبغ الأشياء بالألوان مما يجعل وحدة بينهما لدرجة تُصعب علينا الفصل بينهما فالورقة الخضراء من أية شجرة إذا غمرناها مثلاً في محلول كيميائي قد يتغير لونها الأخضر إلى لون سماوي أو برتقالي أو أي لون آخر طبيعي كما تحول لون مايكل جاكسون من اللون الأسمر إلى اللون الأشقر فأصبح موضوع بلا منهج لأنه فقد فلسفة وجوده باللون الأسمر الذي ارتضاه الله إليه، حتى وإن كانت له فلسفة من وراء تغيير لونه.

وإذا غمرنا قسيص وردية في محلول كيميائي فإنه سيفقد لونه الذي أصطبغ به، والذي ميزه عن غيره من ألوان القمصان، وعندما نزال الألوان عن أصولها تُصبح كالمواضيع بلا منهج لأن المنهج هو الطابع المميز للموضوع أو وسيلة إبرازه علمياً من خلال السبل الفنية التي تتبع من قبل الباحث أثناء تجميع المعلومات والبيانات وانتظامها تحليلاً وتحليلاً واستنتاجاً وتفسيراً، ولهذا إذا كان غير مؤسس على المنهج فهو عبارة عن مشروع ارتجالي لم يُبين على قواعد موضوعية يمكن الاحتكام بها والاحتكام إليها.

المنهج هو الذي به نتعلم كيف نتعلم، ولذا فالمنهج الذي تعلمنا كيف نتعلم هو الذي يُمكن من المعرفة الواعية، والمناهج المخالفة لذلك هي المناهج الإعلامية

الإبلاغية، ولذا فالفرق كبير بين المناهج التي نُلْمَنُها كيف نُلْمَنُ، وبين المناهج التي نُبَلِّغُها أو نُحَلِّمُها بما عَلِمَتْ به، فالأولى: نُفَسِّحُ الطريقَ أو المجالَ أمامنا بما يظهر إبداعاتنا العلمية، والثانية: نُفَسِّحُ الطريقَ أمامنا بما يجعلنا نردد ما نَمُ إعلامنا أو إبلاغنا به، ولا نُحَفِّزُنا على سواه.

المنهج العلمي هو الذي يُمكنُ الباحثَ من كشف العلاقات بين المتغيرات والعلل والأسباب مع المقارنة لأجل التفصيل والتدقيق والتقصي الواعي بموضوعية، مما يؤدي إلى معرفة العلاقات بين الكل، والجزء، والمتجزئ، وأثر كل منها على الآخر وفقاً لمتغيرات البحث المستقلة والتابعة والمتداخلة والدخيلة.

وعليه لكي تكون مناهج البحث العلمي مبدعة ينبغي أن تتحرر من طرقها وأساليبها التسليمية والسردية التي لا تمكن من استيعاب الخصوصية الزمانية والمكانية والظرفية.

إن انتقادنا للمناهج التسليمية، لأننا نريدها أن ترتقي إلى استيعاب المستقبل الأفضل الذي يأمله الناس، ويكفيها القصور عند الماضي أو الحاضر فقط، وهذا لا يعني أنها تتفصل عن ميز الماضي ومميزات الحاضر الجميل، بل يعني أن تُستمد القوة منهما لبلوغ ما هو أقوى وأعظم وأهم. ولهذا التسليم بكل ما يُكتب، أو يُقال لا يعد ميزة بل يُعد عيباً إن لم يتم التخصّص بعد شكِّ بخرص اليقين، ولذا لا تسليم إلا بمسلمات يدركها العقل الواعي وتثبتها التجارب الاجتماعية، أو العملية المخبرية، ولا تسليم إلا لمطلق، ولا مطلق إلا من عند الله عز وجل، وبما أننا نَعْرِفُ أن البشر غير معصومين من الخطأ، فلماذا إذاً لا نشك في آرائهم إلى أن نشبين أنه الحق اليقين؟

وعندما ينتقل تفكير المعلم والمتعلم من الانتظار إلى الامتداد في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، أي عندما لا يقف المعلم والمتعلم عند حد المعلومات التي استقبلوها أو تعلموها، عندما لا تتوقف قدراتهم واستعداداتهم عن الاستيعاب بل

تَنطَلِقُ إِلَى طَلَبِ الْمَزِيدِ الْمَفِيدِ، لِأَنَّ التَّفَكِيرَ الْعِلْمِيَّ تَحْصِييٌّ وَاسْتِثْنَائِيٌّ اسْتِثْنَائِيٌّ، يَرْبِطُ الْعِلَاقَاتَ بَيْنَ الْمَتَغَيِّرَاتِ، وَيَتَوَقَّعُ مَعْلُومَاتٍ أُخْرَى قَدْ نَفَعَتْ فِي أَيِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ الزَّمَنِ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ عَلَى الْكَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ.

الْمَنَاحِجُ الْعِلْمِيَّةُ هِيَ الَّتِي تُبْنِي الثَّقَفَ فِي الْمُعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ، وَتُحَرِّرُهُمَا مِنَ التَّبَعِيَّةِ وَهَمُومِهَا الَّتِي تُطْمَسُ شَخْصِيَّةُ كُلِّ مِنْهُمَا.

الْمَنَاحِجُ الْعِلْمِيَّةُ اسْتِقْصَارِيَّةٌ تَسْأُولِيَّةٌ، وَذَلِكَ عِنْدَمَا تُسْتَفْزِ الْقَارِئُ وَالْمُتَعَلِّمُ عِلْمِيًّا، وَتُحَفِّزُهُمَا عَلَى الْإِطْلَاعِ وَالتَّسْأُلِ، وَتُشَوِّقُهُمَا إِلَى الْمَعْرِفَةِ الْوَاعِيَّةِ، الَّتِي لَا تُجْعَلُ مِنَ الْعِلْمِ طِلَاسَمٌ أَمَامَ الْبَحْثِ وَالنَّفَاشِ وَالْحَوَارِ وَالْجَدَلِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَلِهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْسَ الْمَعَلِّمُ بِالتَّعَالِي وَلَا يَحْسَ الْمُتَعَلِّمُ بِالْخَرِيقَةِ، وَتَنْتَهِي النُّظَرَةُ التَّقْنِيَّةُ الَّتِي تُعْتَبَرُ الْمَعَلِّمَ طَرَفًا مُوجِبًا، وَالْمُتَعَلِّمَ طَرَفًا سَالِبًا، وَالْمَعَلِّمَ مُرْسِلًا لِلْمَعْلُومَاتِ، وَالْمُتَعَلِّمَ مُسْتَقْبِلًا لَهَا، وَيَصْبِحُ التَّعْلِيمُ مُتَحَرِّرًا مِنَ الْقِيُودِ وَفِيهِ تَتَسَاوَى كَفَاتَا الْمِيزَانِ بَيْنَ الْمَعَلِّمِ وَالْمُتَعَلِّمِ، فَصَحَّ أَنْ الْعَمَلِيَّةُ التَّعْلِيمِيَّةُ يَفُودُهَا الْمَعَلِّمُ إِلَّا أَنْ الْمُسْتَهْدَفُ بِالتَّعْلِيمِ هُوَ الْمُتَعَلِّمُ مِمَّا يَسْتَوْجِبُ مَشَارَكَتَهُ وَعَدَمَ تَغْيِيْبِهِ.

أَنْ تُبْدَأَ الْمَنَاحِجُ مَعَ الْمَبْحُوثِينَ، وَالْمُتَعَلِّمِينَ مِنْ حَيْثُ هُمْ، لِكَيْ تُنْدَفَعَ بِهِمْ إِلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ، وَذَلِكَ بِاسْتِيعَابِ أَحْوَالِهِمِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِسَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْدِينِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ، بِمَعْرِفَةِ الْمَسْتَوِيَّاتِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، لِتَكُونَ الْبِدَايَةُ مِنْهَا كَوَاقِعَ اجْتِمَاعِيٍّ وَإِنْسَانِيٍّ، مَعَ مَرَاعَاةِ الْفَرْقِ فِي الْقُدْرَاتِ، وَالْإِسْتِعْدَادَاتِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْمَجْتَمَعَاتِ. إِنْ الْبِدَايَةُ مَعَ النَّاسِ أَوْ الْمُتَعَلِّمِينَ مِنْ حَيْثُ هُمْ تُحْلِلُهَا وَتُشَخِّصُهَا، يُمَكِّنُهُمْ مِنْ اسْتِيعَابِ الرِّسَالَةِ الْمَوْجَهَةِ إِلَيْهِمْ.

وَالْمَنْهَجُ يُعْتَبَرُ هُوَ الْوَعْيُ بِالْمَوْضُوعِ مِنْ خِلَالِ الْوَعْيِ بِفَلَسَفَتِهِ وَبِالْخَطَوَاتِ الَّتِي تُتَّبَعُ مِنْ أَجْلِ اكْتِمَالِهِ وَتَبْيَانِهِ. فَإِذَا سَأَلْنَا سَائِلًا:

أَيُّهُمَا أَسْرَعَ حَرَكَةُ الْجِسْمِ الْأَثْقَلُ أَمْ الْجِسْمُ الْأَخْفُ؟ فَإِذَا أَجَبْنَاهُ إِجَابَةً عَابِرَةً كَمَا سَأَلْنَا عَابِرًا نَقُولُ الْجِسْمُ الْأَخْفُ أَسْرَعَ حَرَكَةً مِنَ الْجِسْمِ الْأَثْقَلِ. وَلَكِنْ هَلْ نَحْنُ عَلَى وَعْيٍ

عندما أجبنا بأنه الأخف؟ لكي نكون واعون بإجابتنا، علينا أن نطرح الأسئلة الآتية ونحاول الإجابة عليها.

- هل تتأثر حركة الأجسام بحجمها أم لا تتأثر؟ أي هل تسوي سرعة جسم يزن 145 كيلو غراما مع سرعة جسم يزن 75 كيلو غراما في مضمار كرة القدم؟  
- هل تتأثر حركة الأجسام بالمسافة أم لا تتأثر؟ أي هل تكون سرعة الجسم واحدة إذا قطع في المرة الأولى مسافة 200 متر، وفي المرة الثانية 2000 متر؟  
- هل الاتجاهات تؤثر على حركة الأجسام؟ أي هل الحركة إلى الأمام تساوي الحركة إلى الخلف؟

- وهل الحركة من أسفل إلى أعلى تساوي حركة الجسم وسرعته من أعلى إلى أسفل؟

- هل الزمن يؤثر على حركة الأجسام؟

- أي هل الذي قضى من الزمن 80 عاما يكون مساويا لمن لم يقض سوى 25 عاما في سرعة حركته؟

- وهل اختلاف زمن السباق للمتساوين في السرعة لا يؤثر في المسافة المستهدفة بالمرور؟

- ألا تتأثر حركة الأجسام بنوعية الأرضية التي يتحرك عليها؟

- أي هل الحركة على الأرض الرملية تساوي الحركة على الأرض المهددة بالفلين؟  
- هل المناخ يؤثر على الحركة؟

- أي هل الحركة في اتجاه الريح تساوي الحركة التي في مواجهتها؟

- ألا يكون للحرارة تأثير على الحركة والمتحرك؟

- هل للنقل أثر على الحركة؟ أي هل كلما زاد ثقل الجسم كلما قلت سرعته الحركية؟  
- ألا يكون شكل الجسم يؤثر على حركته؟

. أي هل كرة دائرية الشكل وتزن كيلو جراما تسقط قبل من أعلى إلى أسفل أم مظلة دائرية الشكل وتزن 3 كيلو جرامات تسقط قبل؟<sup>33</sup>

وعليه، كل الأسئلة السابقة تحمل إجاباتها في مضامينها، نتيجة منهج التوليد الذي يحدد متغيراتها والعلاقات المتكونة بينهما وتأثيراتها الموجبة والسالبة، وعناصر الإثبات والنفي المحمولة فيها. ولذا فطريقة عرض هذه الأسئلة تعبر عن وجود منهج من ورائه حكمة. ويكون المنهج في هذه الحالة هو المجدد للسبل التي يتبعها الباحث في تقصي المعلومات وتفكيكها من خلال تتبع موضوعي من الكل إلى الجزء ثم إلى المتجزئ منه مما يجعل المنهج هو المترجم للفروض والمنظم للبحث من ألفه إلى يائه.

فالمنهج لم يكن قالبا ثابتا لصهر الأفكار تحت درجات حرارة عالية وكأنه فرن لإذابة الحديد أو الخامات المعدنية الأخرى الصلبة، بل المنهج هو الذي يكون قابلا لاستيعاب الجديد ويسعى للكشف عنه.

ولهذا المنهج لم يكن تكرارا روتينيا كما يعتقد البعض الذين يحاولون قصره على دراسة الماضي بالتحليل والتفسير، أو البعض الآخر الذي يريد قصره على دراسة الحاضر المشاهد. بل المنهج هو الذي يربط الموضوع بالزمان والمتغيرات التي تظهر من فترة لأخرى ومن مكان لآخر وهو المستوعب للمستقبل والمتطلع إلى آفاقه المرتقبة.

إذا بالمنهج يتم أخذ العبر من الماضي، واستيعاب الحاضر الجميل من أجل المستقبل الأفضل والأجود والأففع والأفهد، ولكي لا تكون المناهج تكرارات روتينية تؤلّد الملل عندما تقتصر على معرفة الجاهز فقط في الزمن الماضي أو الحاضر ينبغي أن تكون تطلعية لكي تفتح آفاق الإبداع أمام العلوم باستيعابها تطلعات

المجتمع وأمانيه وتتابع عن كتب مراحل نموه وتطوره وتستوعب التغيرات الطارئة عليه، وكذلك ينبغي أن تستوعب شطحات الباحث العلمية من أجل أن تفتح الآفاق أمامه في معرفة الجديد واكتشافه من خلال خروجه عن الروتين والقوالب الفكرية والعقلية المميتة للتألق.

إن المناهج التي تنتظر أن يصاب المجتمع بالمشاكل والأمراض لكي تجد مواضيع للبحث هي مناهج عقيمة وقوالب جاهزة لا طعم ولا رائحة ولا لون لها، ولذا فمن الأهم أن تكون المناهج تطلعية لكي تكون سبّاقة لتحقيق أمانى المجتمع وواقية له من التخلف والمرض ومنفعة به إلى التقدم والرفي، مما يستوجب على الباحث أخذة الحيطه والحذر من أن تنكس أحوال المجتمع إذا ما تم علاجه من مرض قد سبق وأن وقع فيه وشفي منه. ولهذا لا ينبغي أن تقف المناهج عند الذي كان، أو ما هو كائن، بل ينبغي أن تطلع إلى ما هو ممكن في دائرة المتوقع وغير المتوقع. المناهج العلمية هي المناهج التحسينية التي لا تقف عند قبول الواقع فقط بل تعمل على تحسينه إلى ما ينبغي أن يكون عليه حتى لا تكون بمرور الزمن جامدة أو متحجرة لا مرونة من ورائها إلا إثبات عدم قدرة من يتكأ عليها في أن يضيف جديدا أو يأتي به.

وعليه فالمنهج العلمي هو الذي يتبع في تقصي الحقائق وتبينها، ويحتوي على عناصر التشويق التي تحفز القراء على البحث والتقصي الدقيق الواعي، وتمكنهم من التعرف على أسرار وخفاياه، ولهذا لم تكن المناهج قوالب ثابتة تستوجب التقيد بها كما يعتقد البعض، بل تختلف بالضرورة من موضوع إلى آخر، ومن باحث إلى آخر، وحسب الظرف الزماني والمكاني والفلسفة التي دفعت الباحث إلى اختيار الموضوع والبحث فيه.

ونتفق مع الفيلسوف ديكارت في قوله ليس غرضي ها هنا أن أعلم المنهج الذي ينبغي على كل امرئ إتباعه من أجل اقتياد عقله على النحو الصحيح، بل فقط أن أبين الطريق الذي سلكته لإرشاد عقلي<sup>34</sup>.

والغرض من تقديم المنهج هو تبيان النقاط الهامة والأساسية في استيضاح المعلومات والبيانات حتى لا يضيع جهد من يحاول البحث في التخطيط العشوائي الذي تجاوزه العلم الحديث، ولهذا تكون للمنهج قواعد علمية ينطلق منها الباحث ويعودون إليها عند الحاجة دون أن تجردهم من خصوصياتهم الذاتية وأساليبهم الموضوعية.

وحتى لا يستمر اللبس والغموض لدى البعض بأن المنهج هو الطريقة أو أنه هو الأسلوب نقول:

1 . المنهج لم يكن هو الأسلوب.

2 . المنهج لم يكن هو المقرر.

3 . المنهج لم يكن هو الطريقة.

ولتوضيح ذلك فكما سبق أن أوضحنا المنهج دلالة ومعنا ومفهوما نستعرض كل من الأسلوب والمقرر والطريقة حتى يتم التبيين وفقا للآتي:

• الأسلوب: style

الأسلوب هو الكيفية التي بها تُعرض الأفكار وتُراجع المعلومات وتُصاغ المواضيع وتُقدّم النظريات للآخرين، وهو الذي به يتعامل الأفراد بما يمكنهم من التوحد والتفاعل والتوافق أو يجعلهم في حالة فرقة وصدام.

إنه يختلف من فرد إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى، ومن موضوع إلى موضوع ومن زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان، ولهذا لكل مكان مقام، ولكل مقام مقال.

الأسلوب عندما يحتوي عناصر التشويق فيه يشد المستمعين إلى متابعة النص أو الخطاب أو المشهد أو النص، وعندما يفقد ذلك يجعلهم في حالة استرخاء ويحسهم بالملل حتى يفقدهم رغبة المتابعة.

الأسلوب تقن ومهارة في الإنصات والقول والعرض بما لا يُلقي الآخرين أو يمس مشاعرهم وأحاسيسهم بأمرٍ سالب مع المحافظة على ذلك بوافر التقدير والاحترام والاعتبار.

ولذلك لا يُعد الأسلوب هو المنهج أو الطريقة كما يعتقد البعض، فالمنهج قواعد فكرية بها يتم تفكيك المعلومة وتركيبها، والطريقة لها خطوات علمية تتبع من جميع البحوث عندما تستند على قواعد المنهج، ولكن الأسلوب يرتبط بالباحث وخصوصيته اللغوية والأدبية والفكرية والثقافية.

#### • المقرر:

المقرر هو مجموع المفردات وما كُتِبَ عنها في محتوى علمي يناسب مرحلة عمرية ومستوى نضج عقلي.

إنه المادة المناسبة للتَّحصيل المدرسي أو الجامعي أو التعليمي بشكل عام، وهو ما يؤسس على نظريات تربوية ولا يكتبه إلا خبراء متخصصين ولهم من المقدرة ما يُمكنهم من معرفة علم القياس الذي من خلاله يتمكنون من تحديد المقرر المناسب لكل مرحلة عمرية وتعليمية.

فالطفل الذي بلغ من العمر ست سنوات أصبح مؤهلاً عمرياً لدخول المدرسة مع نظرائه من التلاميذ إن كان مؤهلاً عقلياً، ولكي يصوغ له الخبراء والمتخصصين مقرراً تعليمياً يناسب قدراته وإمكاناته العمرية والعقلية عليهم أن ينزلوا بمستوى الخبرة والمستوى العلمي الذي هم عليه إلى مستوى عمري وعقلي يساوي ست سنوات وإلا لن يتمكنوا من صياغة مقرراً يفيد ويرفع من مستوى التلاميذ المتعلمين في السنة الأولى من المرحلة الابتدائية، وإذا أرادوا أن يصوغوا مقرراً إلى المرحلة الثانية من

التعليم الابتدائي فعليهم أن يرتقوا بتفكيرهم سنة أخرى عن تلك السنة التي بها كتبوا مقررا للسنة السادسة بحيث يصبح مستوى صياغتهم العلمية مناسبة لحاجة التلميذ في السنة الثانية من المرحلة الابتدائية وهي سبع سنوات، وهكذا ينمون مع نمو أعمار وعقول التلاميذ والمُعَلِّمين في كل مرحلة من مراحل التعليم إلى أن يبلغوا مراحل التفكير المجرد في التعليم الجامعي وما يساويه وما بعده في التعليم العالي. هذه هي المقررات التي هي الأخرى لا تكتب إلا على منهج أو به وإلا لن تكون مناسبة لمراحل التعليم والمُعَلِّمين الكرام، ولذا فالمقرر مع أنه المؤسس على المنهج فإنه ليس بمنهج.

الطريقة: approach

هي التي تحتوي مجموعة من الخطوات العلمية التي تستوجب الإتيان من قبل الباحث إذا أرادوا تلخيص موضوعي للحقائق، وهي ذات تقنيات قابلة للقياس والضبط العلمي، ولذلك فطرق البحث تتعدد، كما هو موضح في الفصل الثاني.